باب المراسلة والمناظرة

(الخلافة الاسلامية والجامعة العثمانية)(*)

٣

« لتفتحن القسطنطينية ولنعم الامير
أميرها ولنعم الجيش جيشها »
حديث شريف

كان المرحوم عبد الرحمن الكواكبي وهو ذلك العالم الحر والمفكر الابي يشكو من حالة الدولة السابقة فارتاح الانجليز الى مطالبته بالخلافة العربية هو عن حسن نية وبدون إنعام النظر السياسي وهم عن خبث طوية لأن تقهقر الدولة لم يكن قاصرا عليها فقط بل كان ماسا بمصالحهم . الف المرحوم كتابه « أم القرى » ولو أنعم نظره السياسي لرأى الضرر الذي يلحق العالم الاسلامي بوجه عام والشرق الادنى بوجه خاص من جراء هذا المسعى . ولم يقتصر الانجليز عند حد استغواء هذا العالم من الذين لا يلمون كثيرا بالاعتبارات السياسية والظروف الخصوصية بل ان جرأتهم فاقت حد التصور والاياقة اذ كانوا لا يعترفون بالقاضي الشرعي في الصومال الا اذا أقره شريف مكة . وبمثل هذا التقرير كادوا يضعون غشاوة على بصيرة بعض أمراء الشرق لا يقدر أحكام وضعها الا السياسة الانجليزية .

واني آتي هنا على مثالين اثبت بهما جليا كيف ان الانجليز يحاربون الخلافة الاسلامية ثم يستفيدون بادعائهم صداقة (أمير المؤمنين) وشيخ الاسلام سياسيا ولو بالتزوير والتزييف

يعلم الكثيرون بالحركة الوطنية المتأججة نارها في الهند . ولما كان الانجليز في حسن تفاهم مع العثمانيين زوروا كتابات باسم الخليفة وسماحة شيخ الاسلام وادعوا فيها انهما يوصيان مسلمي الهند بالولاء والاخلاص للدولة الانجليزية . واقرب هذه

(*) تابع لما نشر في الجزء الماضي (ص ٨٥٧) بقلم علي افندي فهمي محمد

الكتابات ذلك الحديث الذي عزاه مكاتب التبمس الى سماحة شيخ الاسلام في الآستانة الذي نفى مغزاه وسمياه وفي ذلك الوقت نفسه كانوا يهربون الاسلحة الى بلاد العرب فضبطت أخيرا عند الشواطئ واتضح من التحقيق انها من صنع بلاد الانجليز وكان لسان حالهم يقول انه ذلك ينافي صداقتهم للدولة العلية صاحبة الخلافة الاسلامية

هذه القوة الاسلامية السياسية التي يحللها الانجليز لانفسهم ويحرمونها على غيرهم ترتد فرائصهم منها حتى ان كثيرا من جرائدهم الاستعمارية كالديلي تلغراف ونحوها لما هنأت جمعية الاتحاد والترقي جلالة السلطان بقولها « الى صاحب الخلافة والجلالة أمير المؤمنين وسلطان العثمانيين » زأرت وزمجرت وجردت قول الدوان وشهرت وقالت ان مرسلي التلغراف متشبعون بمبدإ الجامعة الاسلامية الشديدة المقوتة! وهكذا السياسة الانجليزية تنتوي علينا وتتقمع حين ترتوي منا وتتفخ!

نحن نود ابقاء الخلافة الاسلامية في آل عثمان ونعمل لذلك بمامل المصلحة وذلك لان الدولة العثمانية هي أقوى ممالك الاسلام في الحال وستبقى كذلك في الاستقبال وهي التي بيدها الحرمان الشريفان فينبغي أن تكون الخلافة في أيدي العثمانيين حقا للدين ومراعاة للمصلحة العامة. وليس لها من منازع قوي يؤمل أو يخشى نجاحه وانما الدول الاجنبية تفرق بيننا وتغري بعضنا ببعض حتى تنهك قوانا الفرعية وتضعف السلطنة المركزية والواجب على كل عاقل مخلص ان يجهل هذا السبب نصب عينيه.

قال حضرة الكاتب الاسلامي الكبير محمود بك سالم: « جاء اسماعيل باشا فتبع سعيدا في سياسته الفرنسوية فبالغ في مجاملة نابليون الثالث الذي افهمه انه سيساعده على الوصول الى ترقي الملكية المستقلة فأكثر من الترف والبذخ ليعاير على الاكاسرة والقياصرة وجابرة الفراعنة ووزع الهدايا الفاخرة على ملوك أوربا وملكاتها وعلمائها وكتابها ووزرائها وأغنيائها وصالبكها بطريقة أبكت العقلاء وأضحكت الجهلاء. وما زال كذلك حتى انكسر نابليون الثالث سنة ١٨٧٠ فبذ فرنسا وتعلق بانجلترا فأفهم أنه لا يكون ملكا مستقلا الا اذا قارب عدد رعاياه عدد رعايا السلطان نفسه ومن هنا ابتدأت حروب السودان والصومال والحبش ودارفور وأوغنده وزنجبار على غير جدوى للمصريين بل لفائدة الانجليز الذين أرسلوا صموئيل بيكر

باشا وفردون باشا والمرسلين لينشروا المدنية على شواطئ النيل الابيض والنيل الازرق تمهيدا لسياستهم الكبرى . وكل عاقل نظر الى قوة الجيش المصري وسعة تلك الاقطار والى النفقات الباهظة التي أنفقت جزافا والى الرجال الذين ماتوا هدرا ويعدون بمئات الالوف علم مقدار ما لحكامنا من قصر النظر وسوء التدبير »

هذا شيء قليل جدا من كثير جدا مما يشه الاجانب فينا من عوامل الشقاق والخلاف فعسى أن تزول هذه البواعث النفسانية التي أدت بنا جميعا الى التهلكة .

واني أتذكر انه لما زار المرحوم مظفر الدين شاه إيران الآستانة في أواخر أيامه ذكرت جرائدها انه لما قابل السلطان قبل يده فلما انتهى اليه هذا الخبر قال « انما ينتهي الى واجب فاتني أداؤه لان السلطان هو أمير المؤمنين شرعا » فأين هذه الروح العالية والنفس الكبيرة من محمد علي شاه ايران السابق الذي كان يحتج بشدة على التجاء الاحرار الى السفارة العثمانية ويتغافل عن سفارتي روسيا وانجلترا اللتين سلبتاه بلاده ولم تقضاه يوم ان ثل عرشه وقد كان يقول : إن روسيا أحب الممالك الى قلبه . اللهم انك على كل شيء قدير تخرج الظلمات من النور .

ولا أدري ما الذي ينفر العثمانيين غير المسلمين من الخلافة الاسلامية وهي كما شرحناها لا تنافي معنى الجامعة العثمانية الوطنية ولا تضر بهم في شيء ما بل بالعكس تجعل لهم منزلة خصوصية في سائر انحاء العالم لكونهم عثمانيين من رعايا صاحب الخلافة ان العثماني غير المسلم الذي يأنف من الخلافة الاسلامية اما ان يكون غير صادق في عثمانيته واما أن يكون قصير النظر السياسي . قال كاتب مسائل الاسلام والمدنية لم يسبق الارتباط العجيب تلك الفتوحات السريعة التي قام بها المسلمون على عهد الدول العربية والتركية بيد أن الدول الاسلامية الاولى حاولت أن تفصل بين تينك الصفتين المدنية والدينية فكان عصر الانفصال مبدأ انحطاط . ولا تزال الى اليوم خلافة السلطان الاعظم رابطة تربط الشعوب الاسلامية من غير الاتراك بالدولة العلية فتكون بهم قوتها واذا جردت السلطان من هذا اللقب لا تلبث ان ترى الدولة العلية تتحلل وتصبح دولة ثانوية .

لذلك اكرر القول بأن أنصح لجميع العثمانيين بالتآزر والتماسك فان بداءه مع

الجامعة ولا يهولنهم القول بالخلافة الاسلامية التي مع احترامها لشعائرهم الدينية تكسبهم كثيرا من المزايا السياسية والاقتصادية واني أوصيهم بما أوصاهم به شاعر مصر حافظ ابراهيم في تهنئته إياهم بالدستور :

فتفيأوا ظل الهلال فانه ... جم المبرة واسع الغفران
يرعى لموسى والمسيح وأحمد ... حق الولاء وحرمة الأديان
فخذوا المواثق والعهود على هدى التـــوراة والانجيل والفرقان

وما قاله شوقي بك شاعر الامير :

أما الخلافة فهي حائط بيتكم ... حتى يبين الحشر عن أحواله
اخذت بمجد المشرفيّ ونالها ... لكم القنا بقصاره وطواله
طمع القريب أو البعيد بنيلها ... طمع الفتى من دهره بمحاله
ما الذئب مرتدا على ليث الشرى ... في الغاب معتديا على اشباله
بأقل عقلا وهي في أيمانكم ... عمن يحاول أخـذها بشماله

واني بما قدمته من الحجج التاريخية والنظريات السياسية أؤمل الا يكون لمساعي أولئك الاعداء السياسيين المتلبسين بحرمهم بوشاح الصداقة الكاذبة ادنى نصيب من الالتفات فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا يغتب بعضكم بعضا واعملوا بنص الحديث الشريف :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » اه

(المنار) نشرنا هذه الرسالة كما هي ولم نتعرض لتخريج ما ذكر من الاحاديث فيها ولا للبحث في مسائلها ولكننا نقول ان أفكار الكواكبي السياسية كانت مبنية على قواعد منها اليأس من الدولة العلية ولم يكن يريد أن يكون الخليفة القرشي الذي يخلف الخليفة التركي سلطانا حاكما سائسا للعرب أو لغيرهم وانما كان رأيه أن يكون رئيسا دينيا ينظر في مصالح المسلمين الروحية الادبية ويرقيها ، واكثر الذين يتكلمون عن سياسته لا يعرفون منها شيئا ولم يكن للانكليز ولا لغيرهم من الاجانب رأي ولا علم بتأليفه لسجل جمعية أم القرى فانه كتبه في حلب وزاد فيه بمصر ولم يكن يعلم بذلك أحد الا افراد من العثمانيين كصالح أفندي جمال من حزب تركيا الفتاة . وقد ذكرنا في ترجمته في المجلد الخامس اننا لم نكن موافقين له في جميع آرائه السياسية